

مُتَبَرِّرُونَ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ

المحاضرة ٦: بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ

أ.ر. سي. سبرول

نَحْنُ نَدْرُسُ عِبَارَةَ الإِصْلَاحِ "التَّبَرِيرُ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ"، وَسَأَتَمَعُنُ الْآنَ بِإِيْجَازٍ فِي مَسْأَلَةِ الإِيمَانِ. مَا الْمَقْصُودُ بِكَلِمَةِ "الإِيمَانِ" فِي عِبَارَةِ التَّبَرِيرِ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ؟

فِي الْمَرَاكِجِ الْأُولَى مِنَ الإِصْلَاحِ، وَصَلَ إِلَى مَسَامِعِ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ أَنَّ لُوثَرَ يُعَلِّمُ نَوْعًا مِنَ التَّحَرُّرِ الْفَاسِدِ أَوْ يُنَادِي بِالْغَاءِ التَّامِوسِ، وَبِفِكْرَةٍ أَنَّهُ يُمَكِّنُكَ فَقَطْ الإِيمَانُ بِالْمَسِيحِ مِنْ ثَمَّ الْعَيْشِ كَمَا تَشَاءُ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ لَمْ تَعُدْ ضَرْوِيَّةً لِلتَّبَرِيرِ. وَعَلَيْهِ، تَحْتَمُّ عَلَى لُوثَرَ تَوْضِيحُ الْمَقْصُودِ بِالْإِيمَانِ الْمُخْلِصِ. تَارِيخِيًّا، يُخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ فِي كَيْفِ وَسَعِ الْمُضْلِحُونَ فَهَمَّهُمْ لِعَنَاصِرِ الإِيمَانِ الْمُخْلِصِ. عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، أُدْرَجُ فَرَانْسُوا ثُورِيَّتِي، فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، مِنْ سِتَّةِ إِلَى ثَمَانِيَةِ عَنَاصِرٍ دَقِيقَةٍ لِلْإِيمَانِ الْمُخْلِصِ. وَفِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، حَصَرَ جُورْدُونُ كَلَارِكُ هَذِهِ الْعَنَاصِرَ بِعُنْصُرَيْنِ، لَكِنَّ الْمَفْهُومَ التَّقْلِيدِيَّ الْمُعْتَادَ لِعَنَاصِرِ الإِيمَانِ الْمُخْلِصِ فِي الْفِكْرِ الْمُضْلِحِ التَّارِيخِيِّ هُوَ أَنَّ الإِيمَانَ الْمُخْلِصَ يَتَكَوَّنُ مِنْ ثَلَاثَةِ عَنَاصِرٍ مُتَمَايِزَةٍ، وَهُمْ نُوتِيْتَشِيَا (*notitia*) وَأَسْنُسُوس (*assensus*) وَفِيدُوكِيَا (*fiducia*).

أَمَّا عَنِ الْعُنْصُرِ الْأَوَّلِ نُوتِيْتَشِيَا، الَّذِي غَالِبًا مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ نُوتَايِ (*notae*)، يُشِيرُ بِبَسَاطَةٍ إِلَى الْمَعْلُومَاتِ أَوْ الْبَيِّنَاتِ. لَقَدْ سَمِعْتُمْ مَقُولَةً: "لَا يَهُمُّ بِمَاذَا تُؤْمِنُ، مَا دُمْتَ صَادِقًا". بَيْنَمَا الْمَسِيحِيَّةُ تَقُولُ: الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ تَهْتَمُّ بِمَا تُؤْمِنُ بِهِ. إِذْ إِنَّ الإِيمَانَ الْمَسِيحِيَّ لَهُ مَوْضُوعَاتٌ وَأَفْكَارٌ، وَلَيْسَتْ لَنَا السُّلْطَةُ لِمَلِيئِهِ بِمَا يَحْلُو لَنَا. فَلِكَيْ تَتَبَرَّرَ بِالْإِيمَانِ، يَنْبَغِي لَكَ الْحُصُولُ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ عَنِ الْمَسِيحِ وَعَنْ شَخْصِهِ وَعَنْ عَمَلِهِ. عَلَيْكَ إِدْرَاكُ عَنَاصِرِ رِسَالَةِ الْإِنْجِيلِ الَّتِي تُعَلِّقُ عَنِ اللَّهِ الْمُتَجَسِّدِ، الرَّبِّ يَسُوعَ، الَّذِي مَاتَ عَلَى الصَّلِيبِ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا وَمَا إِلَى ذَلِكَ. إِنَّ هَذَا الْكَمَّ مِنْ نُوتِيْتَشِيَا أَوْ نُوتَايِ أَوْ الْبَيِّنَاتِ أَوْ الْمَعْلُومَاتِ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ الإِيمَانَ بِهَا لِكَيْ يَتَبَرَّرَ.

لَكِنَّ بِالإِضَافَةِ إِلَى إِدْرَاكِ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ أَوْ الْمَعْلُومَاتِ، عَلَيْكَ الْمُؤَافَقَةُ عَلَى حَقِيقَةِ تِلْكَ الْمَعْلُومَاتِ وَصِدْقِهَا. عَلَيْكَ الإِيمَانُ بِأَنَّ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالرَّبِّ يَسُوعَ وَشَخْصِهِ وَعَمَلِهِ، حَقَائِقٌ وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ أَسَاطِيرٍ أَوْ خَيَالَاتٍ مُثِيرَةٍ لِلْإِهْتِمَامِ. لِذَا، يَتَطَلَّبُ الإِيمَانُ الْمُخْلِصُ قُبُولًا فِكْرِيًّا وَمَعْرِفِيًّا لِحَقِيقَةِ الْمَعْلُومَاتِ. وَعَلَيْهِ، يَقُولُ الْمُضْلِحُونَ إِذَا كَانَتْ لَدَيْنَا الْمَعْلُومَاتُ نُوتِيْتَشِيَا، وَوَأَفَقْنَا عَلَى حَقِيقَتِهَا، أَسْنُسُوس، فَلَا نَقُلُ شَيْئًا عَنِ الشَّيْطَانِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَعْرِفُ الْمَعْلُومَاتِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَعْلُومَاتِ حَقِيقِيَّةٌ. يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ اجْتِيَازَ مِئَةِ اخْتِيَارٍ لَاهُوتِيٍّ تُخْضَعُ لَهُ. فَهُوَ لَيْسَ غَيْبًا. لِأَنَّهُ مُلِمٌّ بِالْمَعْلُومَاتِ.

وَلَكِنْ بِجَانِبِ الْوَعْيِ الْفِكْرِيِّ وَالْمُوَافَقَةِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ، يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ امْتِلَاكُ فَيْدُوكِيَا، الَّتِي بَدَوْرَهَا مُرْتَبِطَةٌ بِالثِّقَةِ. مَرَّةً أُخْرَى، يَنْبَغِي أَلَّا تَعْرِفَ الْمَعْلُومَاتِ، وَتُؤْمِنَ بِأَنَّهَا حَقِيقِيَّةٌ فَحَسْبُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَتَّقَ بِهَا مِنْ كُلِّ كِيَانِكَ لِتَنَالَ فِدَاءَكَ. لَطَالَمَا قُلْتُ إِنَّهُ مِنَ السَّهْلِ لِلْعَايَةِ فِكْرِيًّا فَهَمُّ مَحْتَوَى عَقِيدَةِ التَّبَرُّرِ بِالْإِيمَانِ وَحَدَهُ، لَكِنَّ نَبِيَّهُ لَيْسَبَحَ فِي الْأَوْرِدَةِ وَالشَّرَايِينِ أَمْرٌ مُخْتَلَفٌ تَمَامًا؛ أَنْ تَتَّقَ حَقًّا إِلَى الْأَبَدِ فِي عَمَلِ الْمَسِيحِ لِجَلَاصِكَ دُونَ أَنْ تُضَيِّفَ إِلَى الثِّقَةِ فِي الْمَسِيحِ اتِّكَالًا عَلَى أَدَائِكَ أَوْ عَلَى نَشَاطِكَ أَوْ أَعْمَالِكَ أَوْ اسْتِحْقَاقِكَ أَوْ، وَهَذَا شَرْطٌ مُحْضَرِيٌّ، اعْتِرَافُكَ بِالْإِيمَانِ.

مِنْ أَعْظَمِ الْمُسْكَلَاتِ الَّتِي تُوَاكِههَا الْيَوْمَ، تِلْكَ التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْاعْتِرَافِ بِالْإِيمَانِ. فَكُلُّ مَنْ لَدَيْهِ إِيمَانٌ مَدْعُوٌّ لِاعْتِرَافِ بِهِذَا الْإِيمَانِ، لَكِنَّ لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَعْتَرِفُ بِالْإِيمَانِ يَمْتَلِكُ هَذَا الْإِيمَانِ. لَطَالَمَا حَدَّرَ الرَّبُّ يَسُوعُ مِنْ أَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الْأَخِيرِ كَثِيرُونَ سَيَأْتُونَ إِلَيْهِ قَائِلِينَ: "يَا رَبُّ، يَا رَبُّ، أَلَمْ تَفْعَلْ هَذَا بِاسْمِكَ، أَلَمْ نَقُمْ بِذَلِكَ بِاسْمِكَ" وَهَكَذَا دَوَالِيكَ، لَكِنَّهُ سَيَقُولُ لَهُمْ: "إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الْإِثْمِ!" إِنَّ هَؤُلَاءِ الْبَشَرَ قَدْ اعْتَرَفُوا بِالْإِيمَانِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَمْتَلِكُوا مَا اعْتَرَفُوا بِهِ. وَقَالَ فِي مَقْطَعٍ آخَرَ: "يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هَذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُنِي بِشَفْتِيهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا". لِهَذَا يُعَدُّ عُنْصُرُ الثِّقَةِ مُهِمًّا لِلْعَايَةِ لِعَقِيدَةِ الْإِصْلَاحِ الْكِتَابِيَّةِ لِلتَّبَرُّرِ بِالْإِيمَانِ، إِذْ يَنْبَغِي أَنْ تَتَحَلَّى بِثِقَةٍ حَقِيقِيَّةٍ وَلَيْسَ مُجَرَّدَ اعْتِرَافٍ.

عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، عَمَلِيًّا، سَأَذْكُرُ الْخَطَرَ الَّذِي نَرَاهُ فِي أَسَالِيْبِ الْكِرَازَةِ الَّتِي تُقَابِلُهَا عِبْرَ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ. تِلْكَ الْحَرَكَةُ أَوْ الْفِكْرَةُ الَّتِي يُطَلَقُ عَلَيْهَا "الْكِرَازَةُ الْقَرَارِيَّةُ" الَّتِي فِيهَا مُحَاوَلُ جَعْلِ النَّاسِ يَتَّخِذُونَ قَرَارًا لِلْإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ وَاتِّبَاعِهِ. فِي بَدَايَةِ اعْتِنَاقِي لِلْمَسِيحِيَّةِ، فِي السَّنَةِ الْأُولَى تَقْرِيْبًا، كَانَتِ الْكَنِيسَةُ الْمَحَلِّيَّةُ، إِبَّانَ التَّحَاقِي بِالْكُلِّيَّةِ، تَعْقِدُ سِلْسِلَةً مِنَ الْاجْتِمَاعَاتِ الْكِرَازِيَّةِ، وَقَدْ أَحْضَرُوا أَحَدَ الْمُبَشِّرِينَ مِنْ مَدِينَةِ أُخْرَى لِيُقَدِّمَ هَذِهِ السِّلْسِلَةَ مِنَ الرِّسَالِ. وَقَدْ التَّقِيْتُ بِهِ عَلَى انْفِرَادٍ، وَقَالَ لِي: "أَوْقِفْنِي مَعَ أَيِّ إِنْسَانٍ بِمُفْرَدِي لِخَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً، وَسَأَحْضُلُ مِنْهُ عَلَى قَرَارٍ بِقُبُولِ الْمَسِيحِ". فَهَمْتُ أَنَّهُ بَعْدَ قَضَاءِ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً مَعَ هَذَا الرَّجُلِ الْمُتَجَدِّدِ، لِمَآذَا سَيَعْتَرِفُ النَّاسُ وَيَقْرُونَ بِأَيِّ شَيْءٍ لِمُجَرَّدِ تَرْكِهِ وَالِابْتِعَادِ عَنْهُ بَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً. لَكِنَّ يَا لَهُ مِنْ تَعَجُّرٍ الْاِعْتِقَادُ بِأَنَّهُ يُمَكِّنُكَ بِبَسَاطَةِ التَّلَاعُبِ بِالْبَشَرِ لِلدُّخُولِ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ.

إِنَّمَا عَلَى الْمُسْتَوَى الْفَلَسْفِيِّ، هُنَاكَ أَمْرٌ مُخْتَلَفٌ. أَوْضَحَ الْفَيْلَسُوفُ التَّجْرِبِيُّ الْبَرِيْطَانِيُّ دِيْفِيدُ هِيَوْمُ فِي تَحْلِيلِهِ لِجُوْهِرِ الْإِيمَانِ، كَيْفَ وَلِمَآذَا يُؤْمِنُ النَّاسُ بِمَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، فَأَوْضَحَ أَنَّهُ يُمَكِّنُكَ اتِّخَاذُ قَرَارٍ لِفِعْلِ الْكَثِيرِ مِنَ الْأُمُورِ. يُمَكِّنُكَ اتِّخَاذُ قَرَارٍ لِلذَّهَابِ إِلَى الْمُتَجَرِّعِ بَعْدَ الظَّهِيرَةِ، وَسَتَذْهَبُ فِعْلًا إِلَى الْمُتَجَرِّعِ. يُمَكِّنُكَ اتِّخَاذُ قَرَارٍ لِقِرَاءَةِ كِتَابٍ فِي الْمَسَاءِ، وَتَقْرَأُ فِعْلًا الْكِتَابَ. يُمَكِّنُكَ اتِّخَاذُ قَرَارٍ بِدِرَاسَةِ أُمُورِ الرَّبِّ يَسُوعَ، وَتَدْرُسُ فِعْلًا أُمُورَ الرَّبِّ يَسُوعَ، لَكِنَّ

مَا لَا يُمَكِّنُكَ فَعَلُهُ بِإِرَادَتِكَ هُوَ الْإِيمَانُ عَقْلِيًّا بِشَيْءٍ لَا تُؤْمِنُ بِهِ حَقًّا. أَنَا لَا يُمَكِّنُنِي اتِّخَاذُ قَرَارٍ بِالْإِيمَانِ بِأَنَّ يَسُوعَ هُوَ رَبِّي وَمُخْلِصُ حَيَاتِي. إِذْ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ مُقْتِنِعًا بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ أَمْتَلِكَ هَذِهِ الْمُوَافَقَةَ، لَيْسَتْ مَسْأَلَةٌ قَرَارٍ، بَلْ حَالَةٌ اقْتِنَاعٍ، أَنْ أَقْتِنَعَ بِحَقَائِقِ الْمَسِيحِ قَبْلَ أَنْ أَضَعَ ثِقَتِي فِيهِ. لِذَا، مَرَّةً أُخْرَى، تُحَاصِرُنَا مُشْكَلاتُ اللُّغَةِ الَّتِي نَسْتَخْذِمُهَا لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْإِيمَانِ.

وَالآنَ، الْكَلِمَةُ الرَّابِعَةُ فِي الْعِبَارَةِ هِيَ "وَحْدَهُ". التَّبْرِيرُ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ، مَاذَا يَعْنِي ذَلِكَ؟ يَعْنِي أَنَّهُ مَا مِنْ مَزِيحٍ مِنَ الْأَعْمَالِ يُضَافُ إِلَى إِيْمَانِنَا عَلَى أَنَّهُ أَسَاسٌ أَوْ قَاعِدَةٌ إِعْلَانِ اللَّهِ بِأَنَّنَا أَزْرَارٌ. إِذَا كَانَتْ لَدَيْ سُبُورَةٍ هُنَا وَيُمَكِّنُنِي أَنْ أَكْتُبَ عَلَيْهَا بَعْضَ الْمُعَادَلَاتِ الصَّغِيرَةِ مِثْلَ مُعَادَلَةِ الرِّيَاضِيَّاتِ ٢+٢=٤، سَأَكْتُبُ ثَلَاثَ مُعَادَلَاتٍ مِنْهَا عَلَى السُّبُورَةِ مِنْ أَجْلِكُمْ. الْأُولَى تُمَثِّلُ الْمَنْظُورَ الْكَاثُولِيكِيَّ لِلتَّبْرِيرِ. الْإِيمَانُ + الْأَعْمَالُ = التَّبْرِيرُ. وَسَأَكْتُبُ مَنْظُورَ الْإِعْآءِ لِلنَّامُوسِ، وَهُوَ الْمَنْظُورُ الْمَسِيحِيَّ الْجَسَدِيُّ الَّذِي هُوَ شَائِعُ الْيَوْمِ؛ الْإِيمَانُ = التَّبْرِيرُ - الْأَعْمَالُ. بِحَيْثُ تَكُونُ مَسِيحِيًّا وَقَدْ تَغَيَّرْتَ، وَجَسَدِيًّا الْمَسِيحِ لَيْسَ رَبَّ حَيَاتِكَ. لِذَا أَنْتُ تُؤْمِنُ بِهِ مُخْلِصًا، لَا رَبًّا. وَعَلَيْهِ فَإِنَّ مَفْهُومَ الْإِعْآءِ النَّامُوسِ يَعْنِي أَنَّهُ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَكُونَ مُؤْمِنًا حَقِيقِيًّا لَكِنْ بِلَا أَيِّ عَمَلٍ صَالِحٍ.

عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ، يَقُولُ لُوَثْرُ مُعَادَلَةً أُخْرَى: الْإِيمَانُ = التَّبْرِيرُ + الْأَعْمَالُ. مَاذَا يَقْصِدُ؟ يَقْصِدُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لَدَيْكَ إِيْمَانٌ حَقِيقِيٌّ، فَسَوْفَ تُظْهِرُ هَذَا الْإِيْمَانَ بِأَعْمَالِ الطَّاعَةِ بَعْدَ أَنْ تَتَبَرَّرَ. فَهَذِهِ الْأَعْمَالُ الَّتِي تُظْهِرُهَا بَعْدَ تَبْرِيرِكَ، لَا تُسَاهِمُ بِأَيِّ شَيْءٍ فِي تَبْرِيرِكَ. لَكِنْ إِذَا لَمْ تُظْهِرْ، فَهَذَا يُبْرهنُ أَنَّكَ تَفْتَقِرُ لِإِيمَانٍ حَقِيقِيٍّ سَيُظْهِرُ ذَاتَهُ دَوْمًا فِي الْأَعْمَالِ. لِذَلِكَ قَالَهَا لُوَثْرُ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ: "التَّبْرِيرُ بِالْإِيْمَانِ وَحْدَهُ وَلَكِنْ لَيْسَ بِإِيْمَانٍ يَظَلُّ وَحْدَهُ". فَالْإِيْمَانُ الْمُخْلِصُ يُرْفِقُ نَفْسَهُ دَائِمًا بِأَعْمَالِ الطَّاعَةِ، وَمَرَّةً أُخْرَى عِنْدَمَا يَقُولُ "وَحْدَهُ"، يَقْصِدُ أَنْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ لَا تُسَاهِمُ فِي تَبْرِيرِكَ مُطْلَقًا.

بِعِبَارَةٍ أُخْرَى نَقُولُ إِنَّنَا نَتَبَرَّرُ بِبِرِّ الْمَسِيحِ وَحْدَهُ. أَيُّ لَا يُمَكِّنُنِي إِضَافَةُ أَيِّ شَيْءٍ إِلَى اسْتِحْقَاقِ الْمَسِيحِ أَوْ إِنْقَاصِ أَيِّ شَيْءٍ مِنْهُ. فَنَحْنُ نَتَبَرَّرُ بِاسْتِحْقَاقِهِ أَوْ بِأَعْمَالِهِ هُوَ. أَمَّا عِبَارَةٌ "تُؤْمِنُ بِالتَّبْرِيرِ بِالْأَعْمَالِ وَحْدَهَا"، فَدُ ثَقَلِبُ الْعِبَارَةِ السَّابِقَةَ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ. إِذْ تَبْدُو مُنَافِضَةً كَلِّيًا وَمُخَالَفَةً تَمَامًا لِمَفْهُومِ التَّبْرِيرِ بِالْإِيْمَانِ وَحْدَهُ. لَكِنْ مَا أَفْهَمُهُ هُوَ أَنَّنَا مُبَرَّرُونَ بِالْأَعْمَالِ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ أَعْمَالَنَا. إِنَّهَا أَعْمَالُهُ، وَلِأَنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ أَكْمَلَ النَّامُوسَ بِرُمَّتِهِ بِطَاعَتِهِ الْكَامِلَةِ وَالْمُسْتَمِرَّةِ، فَنَحْنُ مُبَرَّرُونَ أَمَامَ اللَّهِ إِذْ إِنَّ الْمَسِيحَ نَالَ الْبَرَكَاتِ الَّتِي قَدْ نُقِلَتْ إِلَيْنَا. فَهَلْ تَرَوْنَ كَيْفَ يُمَكِّنُنَا قَلْبُ ذَلِكَ وَنَقُولُ إِنَّنَا مُبَرَّرُونَ بِالْأَعْمَالِ وَحْدَهَا، مَا دُمْتُمْ مُدْرِكِينَ أَنَّ هَذَا بِأَعْمَالِ الْمَسِيحِ وَحْدَهُ؟ فَمَا مِنْ شَيْءٍ يُمَكِّنُنِي إِضَافَتُهُ، وَسَنَفْهَمُ عِنْدَمَا نَتَنَاوَلُ جَمِيعَ التَّصْرِيحَاتِ الْوَارِدَةِ فِي رِسَالَةِ رُومِيَّةِ الَّتِي يَقُولُ بِهَا بُولُسُ: "لِأَنَّهُ

بأعمال التاموس كل ذي جسد لا يتبرر أمامه". ومع ذلك فإننا مبررون بالإيمان بالواحد الذي حفظ أعمال التاموس.

لظالما كنت أدلل في هذه المناقشة على أهمية فكرة الاحتساب، وأريد بضع دقائق أخرى في ذلك. عندما نفرق بين المنظور الكاثوليكي للتبرير والمنظور المصلح للتبرير، نوضح الفرق التالي. إن المنظور الكاثوليكي منظور تحليلي، في حين أن المنظور المصلح منظور تكاملي. حسنا، لقد سمعتم ذلك ألف مرة. وربما لم تسمعوا به من قبل، فما الذي نتحدث عنه؟ في الواقع، عندما نتعمق في الافتراضات والتصريحات، يمكننا التفرقة بين التصريحات التحليلية والتصريحات التكاملية. التصريح التحليلي هو حرفياً إظنا ب ولغو. يخلو خبر المبتدأ من أي جديد لم يكن المبتدأ قد أسرده بالفعل. إذا كتبنا معادلة رياضية على السبورة، للتوضيح، فسنفول $2+2=4$. فما من شيء يختل في الطرف الأيسر من علامة التساوي عن الموجود فعلاً على الطرف الأيمن لأن $2+2=4$ هي $4=2+2$. لذلك، يخلو الطرف الأيسر من علامة التساوي من أي معلومات جديدة. هل فهمتم ذلك؟ التصريح التحليلي هو تصريح صحيح في معناه.

دعوني أقدم لكم مثلاً آخر: "الأعزب يكون إنساناً غير متزوج". ما الذي عرفتموه بعد الفعل "يكون" عن هذا الإنسان؟ فالأعزب معناه الإنسان غير المتزوج. يستحيل أن يكون الأعزب أي شيء آخر غير أنه إنسان غير متزوج، ويمكننا مناداته... حسنا، ليس عليكم مناداته، فأنتم لا تعكسونها قائلين: "الإنسان غير المتزوج يكون أعزب"، لأنه يمكن أن يكون أرملاً أو غير ذلك. لكننا نعلم وفقاً للمنظور التحليلي أن الأعزب هو الإنسان غير المتزوج. فهذا صحيح تحليلياً. لذا فإن المنظور التحليلي للتبرير، بحسب الكنيسة الكاثوليكية، يعلن فيه الله أن الإنسان بار فقط إن كان وعندما يكون هذا الإنسان بحسب التحليل باراً. صحيح؟ فالله يخلل الإنسان، ويرى أنه يمتلك براً طبيعياً. إذ يعلم أن هذا البر الطبيعي ناله بمعونة النعمة والإيمان والمسيح معاً، لكن في التحليل النهائي لن يعلن الله أنه بار ما لم يكن باراً بحسب التحليل.

بينما التصريح التكاملي هو التصريح الذي فيه شيء مضاف إلى المعلومات في الخبر غير موجود في المبتدأ. فإذا قلت لكم إن الأعزب رجل ثري، سأكون قد أضفت خبراً للمبتدأ، أي للأعزب، والخبر معلومة لم يأت بها مصطلح "الأعزب"، كمعلومة امتلاك الثروة، صحيح؟ فالتصريح التكاملي هو ما يضيف شيئاً لا يعثر عليه تلقائياً في المبتدأ. لكن لماذا يطلق على المنظور البروتستانتي "المنظور التكاملي"؟ لأن الله هو من أعلن لي أنني بار، ليس لأنه نظر إليّ ووجد براً في، بل لأن شيئاً أضيف لي، هذا هو البر الخارجي. البر الذي من الخارج. البر الذي ليس مني، بل أضيف لي. لذلك عندما ينظر الله إليّ، يراني مكتسباً ببر المسيح فيعلن لي أنني بار.

وَعِنْدَمَا نَقُولُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَنْ يُعْلِنُ غَيْرَ الْأَبْرَارِ أَبْرَارًا، دَائِمًا مَا نَسْتُخْدِمُ مُصْطَلَحَ "التَّبْرِيرِ الْقَضَائِيِّ". لِأَنَّ التَّبْرِيرَ حُكْمٌ قَضَائِيٌّ بِمُوجِبِهِ يُعْلِنُ اللَّهُ تَبْرِيرَ شَخْصٍ مَا؛ كَمَا أَنَّكُمْ تُدْرِكُونَ مَا الطَّبُّ الشَّرْعِيُّ وَعِلْمُ النَّفْسِ الشَّرْعِيُّ. كَمَا أَنَّكُمْ قَدْ شَاهَدْتُمْ الْكَثِيرَ مِنَ الْمُحَاكَمَاتِ لِتَعْرِفُوا أَنَّ لِلْأَدْلَةِ الْجِنَائِيَّةِ عِلَاقَةً بِالْأَدْلَةِ الَّتِي تَنْطَبِقُ عَلَى الْإِعْتِبَارَاتِ الْقَانُونِيَّةِ أَوْ الْمُحَاكَمَاتِ، فَلِذَا عِنْدَمَا نَقُولُ إِنَّ التَّبْرِيرَ قَضَائِيٌّ، فَإِنَّا نَقْصِدُ أَنَّ اللَّهَ يُعْلِنُ قَضَائِيًّا أَنَّنَا أَبْرَارٌ. لَكِنْ تَظْهَرُ هُنَا مُعْضَلَةٌ صَغِيرَةٌ. تَارِيخِيًّا، لَطَالَمَا اسْتُخْدِمَ مُصْطَلَحُ التَّبْرِيرِ الْقَضَائِيِّ اخْتِصَارًا لِلْمَنْظُورِ الْبُرُوتِسْتَانِيِّ. وَلَكِنْ إِذَا نَظَرْتُمْ إِلَى الْمَنْظُورِ الْكَاثُولِيكِيِّ، فَسَتَرَوْنَ أَنَّ التَّبْرِيرَ يَتَحَقَّقُ، بِحَسَبِ الْمَنْظُورِ الْكَاثُولِيكِيِّ، عِنْدَمَا يُعْلِنُ اللَّهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ بَارٌّ. لِذَلِكَ، حَتَّى فِي الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ، التَّبْرِيرُ حُكْمٌ قَضَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ. إِنَّهُ حُكْمٌ قَضَائِيٌّ بِشَأْنِ مَكَانَتِنَا أَمَامَهُ، لَكِنَّ الْإِخْتِلَافَ بِالطَّبْعِ فِي الْمَنْظُورِ الْكَاثُولِيكِيِّ، إِنَّهُ حُكْمٌ قَضَائِيٌّ تَحْلِيلِيٌّ، أَمَّا الْمَنْظُورُ الْمُصْلِحُ حُكْمٌ قَضَائِيٌّ تَكَامُلِيٌّ.

أَتَذَكَّرُ عِنْدَمَا نُشِرَتِ الْوَيْثِيقَةُ الْأُولَى لِلْإِنْجِيلِيِّينَ وَالْكَاثُولِيكِيِّينَ مَعًا وَأَثَارَتْ عَاصِفَةً مِنَ الشَّجَبِ، ثُمَّ نُشِرَتِ الْوَيْثِيقَةُ الثَّانِيَّةُ بِتَفْصِيلٍ أَكْثَرَ، مُحَاوَلَةً إِظْهَارَ أَنَّ تَقَارُبًا كَبِيرًا قَدْ تَحَقَّقَ بَيْنَ الْكَنِيسَتَيْنِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ وَالْإِنْجِيلِيَّةِ، هَاتِفِي مَوْرُخِ إِنْجِيلِيٍّ بَارِزٍ مَمَّنْ وَقَعُوا عَلَى تِلْكَ الْوَيْثِيقَةِ. وَكَانَ مَسْرُورًا لِلْعَايَةِ وَقَالَ: "هَذِهِ الْوَيْثِيقَةُ، تُعَدُّ الْمَرَّةَ الْأُولَى الَّتِي تُعْلِنُ فِيهَا الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ أَنَّ التَّبْرِيرَ أَمْرٌ قَضَائِيٌّ". قُلْتُ: "أَكْرَهُ أَنْ أُفَجِّرَ فُقَاعَتَكَ، لَكِنَّهُمْ لَطَالَمَا عَلِمُوا بِأَنَّ الْأَمْرَ قَضَائِيًّا، بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ مَنْ يُصْدِرُ الْإِعْلَانَ الْقَضَائِيَّ لِلْمُبَرَّرِينَ".

وَأَيْضًا فِي تِلْكَ الْوَيْثِيقَةِ تَحْدِيدًا، قَالُوا إِنَّهُمْ تَمَكَّنُوا مِنَ الْإِتْفَاقِ مَعًا بِشَأْنِ الْعَدِيدِ مِنَ الْقَضَايَا الْمُتَعَلِّقَةِ بِالتَّبْرِيرِ، وَيَظُنُّونَ أَنَّكُمْ وَصَلُوا لِاتِّفَاقٍ جَوْهَرِيٍّ بَيْنَ الْإِنْجِيلِيِّينَ وَالْكَاثُولِيكِيِّينَ، ثُمَّ تَنْتَهِي الْوَيْثِيقَةُ بِالطَّبْعِ بِأَنَّ الْإِحْتِسَابَ لَا يَزَالُ مَحَلَّ نِقَاشٍ. وَقَالَ "مَائِك هُورْتُون" إِنَّهُمْ قَالُوا سَابِقًا فِي الْوَيْثِيقَةِ إِنَّ جَمِيعَ عَنَاصِرِ التَّبْرِيرِ قَدْ اتَّفَقَ عَلَيْهَا، بِاسْتِثْنَاءِ الْإِحْتِسَابِ. كَمَا أَبْرَزَ مَائِك هُورْتُون النُّقْطَةَ التَّالِيَةَ: "قَدْ تُضَيَّفُ الدَّقِيقُ عَلَى السُّكَّرِ لِتُخْبِرَ الْكَعْكَ الْمَحَلِّيَّ، وَقَدْ تُضَيَّفُ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَكُونَاتِ لِتُخْبِرَ رَقَائِقَ كَعْكَ الشُّوْكَوَلَاتَةِ. لَكِنْ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَدَيْكَ رَقَائِقُ الشُّوْكَوَلَاتَةِ، فَلَنْ تَحْضُلَ عَلَى رَقَائِقِ كَعْكَ الشُّوْكَوَلَاتَةِ. لَقَدْ خَبِزْتُ الْكَعْكَ الْمَحَلِّيَّ، لَكِنَّكَ لَمْ تَحْضُلْ عَلَى رَقَائِقِ كَعْكَ الشُّوْكَوَلَاتَةِ. وَهَكَذَا بَقِيَتْ مَسْأَلَةُ الْإِحْتِسَابِ النُّقْطَةَ الشَّائِكَةَ، فِيمَا بِهَا أَوْ بَعْدِهَا. إِذَا لَمْ تَحْضُلْ بِرَبَّنَا الدَّائِيَّ، أَوْ بِرِّ شَخْصٍ آخَرَ. فَمَا مِنْ حَلٍّ وَسَطٍ هُنَا. مَا مِنْ طَرِيقَةٍ لِتُجَزِّئَ الْعَقِيدَةَ لِلتَّخْلِصِ مِنْ كَلِمَةِ "وَحْدَهُ". لِهَذَا اسْتَمَرَّ لَوْثُرُ فِي تَأْكِيدِهِ عَلَى كَلِمَةِ "وَحْدَهُ"، لَيْسَ بِاسْتِطَاعَتِكَ إِضَافَةَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ لِأَنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ وَبَرَّهُ فَحَسَبُ مَا يُبَرِّرُنَا.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".